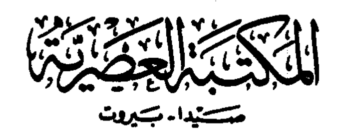
شرح مقامات الحريري

لأبي العبّاس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق

محمّد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الأول



١٤١٣هـ ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٢٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس LE ٢٩١٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مقامات الحريرى

١ - لم يبلغ كتاب من كتب الأدب ما بلغته هذه المقامات — التى أبدع إنشاءها الأستاذ الرئيس أبو محمد القاسم بن علىّ الحريرىّ — من نباهة الذكر ، وبعد الصيت ، واستطارة الشهرة . فإنه لم تكد تصدر منها النسخة الأولى فى بغداد حتى أقبل الوراقون على كتابتها ، والعلماء على قراءتها عليه من شتى الجهات ؛ ذكروا أن الحريرى وقّع بخطه فى شهور سنة أربع عشرة وخمسمائة على سبعمائة نسخة[1] ؛ كما أن العلماء فى جميع الأقطار العربية أخذوا يتدارسونها فى المدارس والمعاهد ، ويقرءونها فى الأندية والمحافل ، بل إن شهرتها امتدت فى حياته إلى الأندلس ، فوفد فريق من علمائها على الحريرىّ ببغداد - منهم الحسن بن علىّ البطَليوسى ، والحجاج بن يوسف القضاعى ، وأبو القاسم عيسى ابن جهور - وقرءوا عليه بمنزله هذه المقامات ، ثم عادوا إلى بلادهم حيث تلقاها عنهم العلماء والأدباء ، وتناولوها رواية وحفظاً ، ومدارسة وشرحاً . .

ولمؤرخى الآداب العربية أقوال مختلفة فى سبب إنشائها . .

نقل ياقوت عن عبد الله بن محمد بن محمد بن أحمد النقور البزاز ببغداد ، قال : سمعت الرئيس أبا محمد القاسم بن علىّ الحريرى صاحب المقامات يقول : أبو زيد

(١) معجم الأدباء ١٦ : ٢٦٧ .

السَّرُوجيّ ، كان شيخاً شحاذا بليغاً ، ومكدياً فصيحا ، ورد علينا البصرة ، فوقف يوماً فى مسجد بنِي حرام ، فسلّم ثم سأل الناس — وكان بعض الولاة حاضرا ، والمسجد غاص بالفضلاء — فأعجبتهم فصاحته ، وحسن صياغة كلامه وملاحته ، ثم ذكر أسر الروم ولده . . واجتمع عندى عشية ذلك اليوم جماعة من فضلاء البصرة وعلمائها ، فحكيت لهم ماشاهدت من ذلك السائل ، وما سمعت من لطافة عبارته وتحقيق مراده ، وظرافة إشارته فى تسهيل إيراده ؛ فحكى كل واحد من جلسائه أنه شاهد من هذا السائل ومجلسه مثل ماشاهدت ، وأنه سمع منه فى معنى آخر فصلا أحسن مما سمعت ، وكان يغيّر فى كل مسجد زِيَّه وشكله ، ويُظهر فى فنون الحيل فضله ، فتعجبوا من جريانه فى ميدانه ، وتصرفه فى تلوّن إحسانه . فأنشأت المقامة الحرامية ، ثم بنيت عليها سائر المقامات ، وكان أول شيء صنعته . وذكر ابن الجوزى هذه الحكاية فى تاريخه ، وزاد فيها أن الحريرى عرض هذه المقامة الحرامية على أنوشروان بن خالد وزير السلطان ، فاستحسنها ، وأمره أن يضيف إليها ما شاكلها ، فأتمها خمسين مقامة [1].

وفى رواية لابن خلكان ، قال : لما عمل الحريريّ المقامات أنشأها على أربعين مقامة ، وحملها من البصرة إلى بغداد ، وادعاها ، فلم يصدق ذلك جماعة من أدباء بغداد ، وقالوا : إنها ليست من تصنيفه ، بل هى لرجل مغربيّ من أهل البلاغة مات بالبصرة ، ووقعت أوراقه إليه ، فادّعاها . فاستدعاه الوزير إلى الديوان وسأله عن صناعته ، فقال : أنا رجل منشيء ، فاقترح عليه إنشاء رسالة فى واقعة بعينها ، فانفرد فى ناحية من الديوان ، وأخذ الدواة والورقة ، ومكث زمانا كثيرا ، فلم يفتح الله عليه بشيء من ذلك ، فقام وهو خجلان ، وكان فى جملة

---

(١) معجم الأدباء ١٦ : ٢٦٣ .

-من أنكر دعواه فى عملها أبو القاسم علىّ بن أفلح الشاعر ، فلما لم يعمل الحريرىّ الرسالة التى اقترحها الوزير أنشأ ابن مفلح :

شيخٌ لنا من ربيعة الفرسِ   يَنْتِفُ عُثْنُونَهُ من الهوَس

أنطقه الله بالمشانِ كما   رَمَاهُ وَسْطَ الديوان بالخرس

وكان الحريرىّ يزعم أنه من ربيعة الفرس ، وكان مولعاً بنتف لحيته عند الفكرة ، وكان يسكن مشارف البصرة ، فلما رجع إلى بلده عمل عشر مقامات أخَر ، وسيرهنّ إليه ، واعتذر من عِيِّه وحَصَره فى الديوان لما لحقَه من المهابة (١) .

وقال ابن خلكان أيضاً : رأيت فى شهور سنة ستّ وخمسين وخمسمائة بالقاهرة المحروسة نسخة مقامات ، وجميعها بخط مصنفها الحريرىّ ، وقد كتب أيضا بخطّه على ظهرها أنه صنفها للوزير جمال الدين عميد الدولة أبى علىّ الحسن ابن أبى العز علىّ بن صدقة وزير المسترشد ... قال : ولا شك أن هذه الرواية أصح لكونها بخط المصنّف (٢) .

٢ـ وقد نسب الحريرىّ رواية هذه المقامات إلى الحارث بن همام ، وعَنَى بهذا الاسم نفسه ، ونظر فى ذلك إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « كلكم حارث وكلُّكم همام » ، فالحارث الكاسب ، والهمام كثير الاهتمام بأموره ، وما من شخص إلا وهو حارث وهمام .

وجعل بطل هذه المقامات أبا زيد السروجىّ ؛ وتختلف الروايات أيضا فى حقيقة أمره ، فمن قائل : إنه اسم خيالىّ وضعه الحريرىّ واستوحاه من صورة الشحاذ الذى لقيه فى مسجد بنى حرام بالبصرة . ومن قائل بأنه كنية اسم حقيقى

---

(١) ابن خلكان ١ : ٤٢٠ .   (٢) ابن خلكان ١ : ٤٢٠ .

لرجل اسمه المطهر بن سلام ، ذكره القفطى فى إنباه الرواة ضمن تراجم النحاة ، وقال فى حقه : صاحب أبى محمد القاسم بن علىٍّ الحريرى البصرىّ ، أنشأ المقامات على لسانه ، وكان فيه فضل وأدب ، وله معرفة بالنحو واللغة والعربية ، قرأ على أبى محمد الحريرىّ بالبصرة ، وتخرّج به ، وروى عنه [1] .

وأيًّا كان الخلاف حول سبب إنشاء هذه المقامات وبطلها أبى زيد ، فإنّ هذه المقامات عملٌ فنىّ رائع منقطع القَرين ، حوى من متخيَّرِ الألفاظ ومنتخل الأساليب وناصع البيان ، مع إحكام السبك وإشراق الديباجة والبعد عن الركاكة والابتذال ـ ماجعلها قمة فى الآداب العربية ترتفع عن مقام المتحدّى والمعارض على السواء . وقد صاغها مجالس متنوعة تختلف موضوعاتها باختلاف البلاد التى تخيل أنّه زارها ، ورحل إليها ، ما بين فرغانة وغانة ، وأفرغها فى قوالب طريفة فى الأدب والنقد والوعظ والفكاهة ، يتخلّلها وصف للمجتمع وأحوال الناس ، وجعلها فى أسلوب السجع الكامل ، بعدأن وشّاها بألوان البديع من الجناس والطباق والمقابلة ، أو كما يقول المؤلف فى صدر كتابه : أنشأت ـ على ما أعانيه من قريحة جامدة ، وفطنة خامدة — خمسين مقامة تحتوى على جِدِّ القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره ، إلى ما وشّحتها به من الآيات ، ومحاسن الكنايات ، ورصعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجى النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبَّرة ، والمواعظ المبكية ، والأضاحيك الملهية .

وكان أول لقاء وقع بين الحارث بن همام وأبى زيد السروجىّ فى صنعاء ؛ وكانا فى رُواء الشباب وربيع العمر ، حيث لقىَ الحارث أبازيدٍ خطيباواعظا، ثم عرفه بعدذلك مخادعا مخاتلا ، وعليه بنى الحريرىّ المقامة الأولى وأسماها المقامة الصنعانية . ثم

---

(١) إنباه الرواة ٣ : ٢٧٦

أخذ الحارث يقطع الأسفار ، ويجوب الفيافى والقفار ؛ ليلقى أبا زيد ؛ مرةً فى ساحة القضاء ، وأخرى فى مجالس الولاة ، وآونة فى أندية الأدباء ؛ واعظا أو شاعرا ، أو شحاذا أو مخاصما؛ ثم يمضى بهما العمر وتتابعُ الأيام؛ إلى أن يلتقيا فى أخريات عمرهما بالمسجد الجامع بالبصرة بعد أن خلُقت جِدّتهما، وذوى عودهما، ورثَّ بُرْد شبابهما؛ وإذا أبو زيد يقف فى حشد الناس ؛ يعلن توبته ، ويندم على ما قدم من ذنوب وآثام، وينشد:

أستغفر الله من ذنوب أفرطت فيهنّ واعتديتُ
كم خضت بحر الضلال جهلا ورحت فى الغىّ واعتديتُ
وكم تناهيت فى التخَطِّى إلى الخطايا وما انتهيْت
فليْتَنِى كنت قبل هذا نسيا ولم أجْنِ ما جنيتُ
يارب عفواً ، فأنت أهل للعفو عنى ، وإن عصيت

ثم يختفى أبو زيد ويعود إلى بلده سَرُوج ، يلبس الصوف، ويؤُمّ الصفوف ، ويجنح الحارث بعدها إلى الراحة ويكفّ عن الأسفار ؛ ويكون هذا آخر لقاء بينهما ، وبه تنتهى المقامة الخمسون ، آخر المقامات .

٣ـ ولم يكن الحريرى مبتدع فنّ المقامات ولا أبا عُذْرها ، بل سبقه إلى هذا الفن بديع الزمان الهمذَانى ، وإلى ذلك يشير بقوله فى صدر المقامات يتحدّثُ عمّن سبقه : هذا مع اعترافى بأن البديع رحمه الله سبّاقُ غايات ، وصاحب آيات ، وأن المُتَصَدِّىَ بعده لإنشاء مقامة ، ولو أوتىَ بلاغة قدامة ، لا يغترف إلا من فُضالته ، ولا يسرى هذا المسرى إلا بدلالته ؛ ولله درّ القائل :

فلا قبل مبكاها بكيت صبـــابة
بسعدى شفيت النفس قبل التندّمِ

ولـكن بَكَتْ قَبْلِي فهيّج لى البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدِّم

ومع ذلك فإن من جاء بعدهما من كتّاب المقامات ؛ إنما قصد محاكاة الحريرىّ والنسج على منواله ،والسّير فى دربه ؛ فمنهم من حاول ولم يوفَّق، ومنهم من عمل ولـكنه أخفقَ . . .

فمِمّن حاول ذلك علىّ بن الحسن بن عنتر المعروف بالشميم الحِلّىّ، قال ياقوت: وردتُ آمِد فى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وأنا فى عنفوان الشّباب وريْعه ؛ فبلغنى أن بها علىّ بن الحسن بن عنتر المعروف بالشميم الحلىّ — وكان من العلم بمكان مَكين ، واعتلق من حباله بركن ركين ؛ إلا أنه كان لايقيم لأحد من أهل العلم المتقدمين ولا المتأخرين وزنا ، ولا يعتقد لأحد فضيلة ، ولايقرّ لأحد بإحسان فى شىء من العلوم ولا حُسْن ،فحضرْتُ عنده ، وسمعت من لفظه إزراءه على أولى الفضل ،وتنديده بالعيب عليهم بالقول والفعل؛ فلما أبرمنى وأضجر ، وامتدّ فى غيِّه وأصحر ،قلت له : أما كان فيمن تقدّم على كثرتهم وشغَف الناس بهم عندك مجيد قط ! فقال : لا أعلم إلا أن يكون ثلاثة رجال : المتنبى فى مديحه خاصة ، ولو سلكت طريقه لـما برّز علىّ ، ولسقت فضيلته نحوى ونسبتها إلىّ ، والثانى ابن نباته فى خطبه ،وإن كانت خَطَبِى أحسن منها وأشهر ، وأظهر عند الناس قاطبة وأشهر . والثالث ابن الحريرىّ فى مقاماته . قلت : فما منعك أن تسلك طريقته ، وتنشد مقاماتٍ تخمد بها جمرته وتملِكُ دولته ؟ فقال : يابنىّ ، الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل ؛ ولقد أنشأتها ثلاث مرات ، ثم أتأملها فأسترذِ لها ، وأعمد إلى البركة فأغسلها ؛ ثم قال: وما أظنُّ الله خلقنى إلا لإظهار فضل الحريرىّ [1] !

ومنهم أبو الطاهر محمد التميمىّ السرقسطىّ الأشتراكوىّ [2] المتوفى بقرطبة سنة

---

(١) معجم الأدباء ١٦ : ٢٦٧ — ٢٦٩

(٢) منسوب إلى أشتركوى ، من أعمال تطيلة ، من بلاد الأندلس .

٥٣٨ ، أنشأ كتاب «الخمسين مقامة اللزومية »[1] عارض بها مقامات الحريرىّ، ولزم فى نثرها مالايلزم ، متأثرا بالمعرّى فى لزوميّاته،فأبعدالنجعة، وأتعب خاطره، وكدّ ذهنه ، وأسهر جفنه ، وصعّب على نفسه المسالك ، وقيّد كلامه نظما ونثرا. واتخذ راويه المنذر بن همام، وجعل بطله السائب بن تمام ؛ ولكنّ هذه المقامات ذهبت بها عوادى الأيام ، فلم تصل إلينا .

ثم قام جار الله محمود بن عمر الزمخشرىّ المتوفى سنة ٥٣٨ أيضا ، فأنشأ مائة مقامة كالمقالة ، تدور كلها حول الوعظ ؛ ولكن ليس فيها راوٍ ،ولا بطل ؛ بل خاطب فى جميعها نفسه ، وذكّرها بالآخرة ، ورغبها فى الأعمال التى تؤدى بها إلى نعيم الله ورضوانه .. وكأنّ الزمخشرى أحسّ فى هذه المقامات بقُصوره عن غاية الحريرى ، وبُعده عن مداه ، فقال :

أقسم بالله وآياته ومشعر الحج وميقاتِهِ
أن الحريرىَّ حرىّ بأن نَكتُب بالتّبر مقاماتِهِ

ثم توالى المقلّدون جيلا بعد جيل ، كابن الجوزى وأبى العلاء أحمد بن أبى بكر الرازىّ وابن ناقيا وابن الصيقل الجزرىّ وابن حبيب الحلبىّ وابن الوردىّ والسيوطىّ وغيرهم ؛ إلى أن انتهى إلى خاتمة المقلدين الشيخ ناصيف اليازجى ، أحد أعيان البيان بلبنان فى القرن التاسع عشر الميلادى؛ فدرس مقامات الحريرى وحفظها ، ثم أخذ يروض قلمه على مقامات تنحو نحوها ؛ وتسلك نهجها ، وما زال يلتمس الوسائل ، ويتطلّب الذرائع ، ويرتاد نواحى الظفر ، ويتوخّى وجوه النُّجح،حتى عمل أكثر من ستين مقامة سماها «مجمع البحرين » ، أى النثر والنظم ؛ وجعل راويها سهيل بن عباد ،وبطلها ميمون بن حزام ؛

---

(١) فهرست ابن خير ٣٨٧

وتنقّل بسهيل بن عباد فى البلدان — كما تنقل الحريرىّ بالحارث بن همام ـ ليلقى ميمون بن حزام ، سالـكا مسالك أبى زيد فى المـكايد وطرق التنـكّر والتعلّق بفصيح الـكلام ...

وعلى الرغم من دقة المحاكاة فى بعض هذه المحاولات ، فإن الحريرىّ يبقى منفردا بفنّه ، واحداً فى أسلوبه ؛ لايدانيه أحد منهم فى نثره أو نظمه ، بَذّ من قبله، وأتعب مَن بعده، وستظلّ مقاماته من أجود ماجادت به القرائح ، وأجمل مانضحت به الأقلام ؛ على مرّ العصور والأيام . .

٤ ـ وإن كان لهذه المقامات منزلة عند القدماء ، عبر عنها ياقوت بقوله : « وافقه من السعد مالم يوافق مثله كتاب ، جمع بين الجودة والبلاغة واتّسعت له الألفاظ ، حتى أخذ بأرقها وملك ربقتها ، وأحسن نسقها ؛ حتى لو ادّعى الإعجاز لما وجد من يدفع صدره ، ولا يردّ قوله ، ولا يأتى بما يقاربها ، فضلا عن أن يأتىَ بمثلها ، ثم رزقت مع ذلك من الشهرة وبعد الصيت والاتفاق على استحسانها من الموافق والمخالف ما استحقت به وأكثر . . . » ، ـ فإنها لم تخل من نَقْدِ بعضهم وتجريحهم له ؛ منهم ابن الأثير فى المثل السائر وابن الطقطقى فى الآداب السلطانية .

ومن أشهر من نال منه أبو محمد عبدالله بن أحمد بن أحمد المعروف بابن الخشاب ، وضع رسالة جمع فيها المـآخذ التى وقع عليها فى المقامات؛ قال فى مقدمتها : « وله أشياء فى أثناء مقاماته لورجع فيها لأقرّ مع الإنصاف بالخطأ ساكتاً فسلّم ، أو لنازع مباهتاً . وأنا أسوقها على التوالى موضعا فموضعاً، مع تمهيد عذره ؛ لقلّتها فى جنب صوابه ، وما مر به من المحاسن فى أثناء كتابه ، علماً بأن الـكامل من عُدّت سقطاته ، والفاضل من أحصيت هفواته » .

وقد قام الإمام عبد الله بن برى فألف رسالة انتصر فيها للحريرىّ من

مآخذ ابن الخشاب ثم جاء عبد اللطيف بن يوسف البغدادى ، فنصب نفسه حكماً بينهما ، ووضع رسالة أسماها الإنصاف بين ابن برى وابن الخشاب فى كلامهما على المقامات .

٥ـ وبجانب الحركة الفكرية والأدبية التى أحدثتها المقامات فى المشرق ؛ فى العراق والشام ومصر. فإنّ مثل هذه الحركة قامت فى الغرب أيضا ؛ فى أسبانيا وإنجلترا وفرنسا وألمانيا ؛ وكان أول ماعمل من ذلك ماقام به المستشرق الهولندى جوليوس سنة ١٦٥٦م ، من ترجمة المقامة الأولى إلى اللغة اللاتينية، ونشرها فى الطبعة الثانية لكتاب تعليم اللغة العربية أربينيوس فى ليدن. ثم نقل المستشرق الهولندى شولتنس ست مقامات بين سنتى ١٧٣١، ١٧٤٠م ونقل بعده ڤانتوردى پارادى منتخبات من سبع عشرة مقامة بين سنتى ١٧٨٦م و١٧٩٥ إلى اللاتينية أيضا .

وفى فرنسا قام المستشرق كوسان دى پرسڤال بنشر المتن العربى الكامل، وطبع سنة ١٨١٢ م كما قام الأستاذ دى ساسى بجمع مخطوطات المقامات وشروحها ، وعمل منها شرحاً عربيًّا، وطبع المتن والشرح فى باريس سنة ١٨٢٢م ، ثم طبع مرة أخرى فى باريس أيضا بين سنتى ١٨٤٧ ، ١٨٥٣م ، واشتهرت هذه الطبعة فى الشرق والغرب ، وتصدى لها بالنقد الشيخ ناصيف اليازجى .

أما فى ألمانيا ، فقد قام العلامة رُكَرت ، وترجم هذه المقامات سجعا باللغة الألمانية ، وقد اقتضى منه ذلك جهدا فى استعمال كلمات نادرة الاستعمال فى هذه اللغة حتى قال بعض النقاد الألمان : إن ركَرْت أجبر لغته على الألعاب الرياضية الشاقة ؛ وقد تمتّعت هذه الترجمة بشهرة عظيمة فى عالم الاستشراق .

وفى اللغة الإنجليزية قام تشنرى بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية فى سنة ١٨٦٧م وتبعه استجاس فترجمها أيضا فى سنة ١٨٩٨م .

وفى أسبانيا ترجم الشاعر اليهودى يوراى الحريزى هذه المقامات إلى العبرية، وطبعت هذه الترجمة فى لندن سنة ١٨٧٢ م.

وفى كثرة هذه التراجم والطبعات دلالة على مانااله الحريرى فى الحلقات الاستشراقية من التقدير فى نواحى الغرب[١].

٦ ـ وقد كانت المقامات من أوائل ماطبع من الكتب العربية ؛ وأول طبعة لها كانت هى الطبعة التى ذكرت أنها كانت فى باريس سنة ١٨١٩م بعناية كوسان دى برسفال، ثم توالت طبعاتها بعد ذلك فى باريس ولندن وليدن وكلكته ولكناو ودهلى بالهند وبولاق والقاهرة وتبريز وبيروت[٢].

أما النسخ الخطية من هذه المقامات فلا تكاد تخلو مكتبة من المكتبات العربية فى الشرق والغرب من عدد وافر منها متناً أوشرحا ، وفى دار الكتب المصرية من المقامات أكثر من ثمان وعشرين نسخة ؛ غالبها نفيس، ومنها نسخة برقم ١٠٥ ـ أدب منقولة من خط المؤلف بعد سماعها عليه، وفى أولها إجازة بخطه ، ونسخة برقم ٤٤٧٩ ـ أدب طلعت ، وعليها خط المؤلف أيضا ، ونسخة برقم ٢٥٩ ـ أدب ،عليها سماعات مؤرخة سنة ٦٦٣ ، ونسخة بخط مرتضى الزبيدى كتبت سنة ١١٦٥ ، ونسخة برقم ١٥٢٩ ـ أدب بخط ابن نجدة كتبت سنة ٧٢٩، هذا عدا النسخ الخطية المشروحة[٣].

(١) أفدت هذه المعارف الاستشراقية ؛ مما كتب به إلىّ العلامة الدكتور أرنست جانرت أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة فينا .

(٢) انظر معجم المطبوعات العربية لسركيس ٧٤٨ ، ٧٤٩

(٣) انظر فهارس دار الكتب .

١ ـ ومؤلف المقامات هو الرئيس أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرىّ منسوبا إلى صناعة الحرير أو بيعه ، ولد سنة ٤٤٦ هـ بالمشان ، وهى قرية قرب البصرة ، ثم رحل إلى البصرة وسكن فى محلة بنى حرام ـ وهم قبيلة من العرب سكنوا بالبصرة ـ وتأدب بها ، وقرأ العربية على أبى الحسن بن فضّال المجاشعىّ شيخ إمام الحرمين ، والفقه على أبى إسحاق الشيرازى . وعُيِّن صاحب الخبر بالبصرة ؛ وهو منصب ظل به إلى أن مات ، فتوارثه أولاده من بعده ، وظلّ فيهم إلى عهد العماد الأصبهانىّ الذى زار البصرة سنة ٥٥٦هـ .

وكان الحريرىّ ـ إلى جانب علمه وأدبه وتمرسه بفنون العربية جميعها ـ من ذوى الجاه واليسار ، كان له بالمشان أكثر من ثمانية عشر ألف نخلة ، يغلها ويتردد عليها ، وكان له منزل بالبصرة يقصده الأدباء والعلماء يقرءون عليه أو يفيدون من علمه ، وخاصّة بعد أن ألف المقامات وذاعَ أمرها بين الناس. وكان مرهف الشعور صادق الحسّ والتخمين ، حكى أنه زاره شخص غريب ليأخذ عنه شيئا ؛ فلما رآه استزرى شكله . ففهم الحريرىّ ذلك منه ، فلما التمس منه أن يُملِىَ عليه قال له : اكتب :

ما أنت أول سارٍ غرّهُ قمرٌ ورائد أعجبته خُضرة الدِّمَنِ
فاختر لنفسك غيرى إننى رجل مثل المعيدىّ فاسمعْ بى ولا ترنى

فخجل الرجل وانصرف عنه .

٢ ـ وللحريرىّ ديوان رسائل أورد ياقوت شيئا منها ، وله الرسالة السينية التزم فى جميع كلماتها حرف السين ، والرسالة الشينية التزم فى جميع كلماتها حرف الشين ، أوردهما ياقوت أيضا .

وله شعر فى غير المقامات ، ذكر منه ابن خلكان قوله :

قال العواذل ماهذا الغرامُ به أما ترى الشَّعر فى خدّيْهِ قد نبتا

فقلت والله لو أن المفنِّد لى تأمل الرشد فى عينيه ماثبتا

ومن أقام بأرض وهى مجدِبة فكيف يرحل عنها والربيع أَتَى !

وأورد له صاحب الخريدة :

كم ظباء بحاجرِ فتِنت بالمحاجر

ونفوسٍ نفائسٍ خُدرت بالمخادرِ

وتَثَنٍّ لخاطرٍ هاج وجداً لخاطر

وعِذار لأجله عاذلى عاد عاذرى

وشجون تضافرت عند كشف الضفائر

وأورد له ياقوت :

لاتخطونّ إلى خِطءٍ ولاخطإٍ من بعد ماالشيب فى فوديك قد وَخَطا

وأىّ عذر لمن شابت ذوائبه إذا سرى فى ميادين الصبا وخطا

وله غير الشعر والرسائل والمقامات مايأتى :

١ — درة الغواص فى أوهام الخواصّ ، بيّن فيه أغلاط الكتاب فيما يستعملونه من الألفاظ بغير معناه فى غير موضعه . طبع فى مصر سنة ١٢٧٢ هـ ، وفى ليبسك سنة ١٨٧١ م ، وطبع مع شرح الخفاجى فى الآستانة سنة ١٢٩٩هـ .

٢ — ملحة الأعراب فى صناعة الإعراب ، وهى أرجوزة ، وأولها :

أقول من بعد افتتاح القول بحمدِ ذى الطول شديد الحول

طبعت فى باريس وبيروت ومصر ، وقد شرحها بحرق الحضرمىّ ، وأسمى الشرح « تحفة الأحباب وطرفة الأصحاب » ، وطبع بمصر مرارا أيضا .

٣ — قصيدة من وزن الخفيف ، منها نسخة مخطوطه فى مكتبة برلين برقم ٧٧٩ ، وأوردها السيوطىّ فى المزهر ١ : ٢٨٦ — ٢٨٨ ، وأولها :

أيُّها السائلى عن الظاء والضّا دِ لكيلا تُضِلَّه الألفاظُ

١ ـ وتعتبر مقامات الحريرىّ أكثر الـكتب حظًّا فيما وقع لها من شروح ، وما أُديرَ حولها من تعاليق ، أحصى صاحب كشف الظنون أكثر من خمسة وثلاثين شارحا ، منهم محمد بن علىّ بن عبد الله الحلىّ ، ومحمد بن علىّ المعروف بابن حميدة ، ومحمد بن محمد المكى الصقلى المعروف بابن ظفر ، وأبو المظفر محمـد بن أسعد المعروف بابن حكيم ، وعلىّ بن الحسن المعروف بشميم الحلى ، وسليمان بن عبد الباقى بن سلامه الضرير ، والشهاب الحجازى ، وعبد الله بن الحسين العكبرى ، وقاسم بن قاسم الواسطى ، عبد اللطيف بن يوسف البغدادى ، وأبو الفتح ناصر بن السيد المطرزى ، ومحمد بن عبد الرحمن محمد بن مسعود الفندجيهىّ ، وأحمد بن عبد المؤمن القيسىّ المعروف بالشريشىّ ، وسليمان ابن عبـد القوى الحنبلى العروف بنجم الدين الطوفى ، وأحمد بن المظفر الرازى وغيرهم .

وممن قام بشرحها من المتأخرين المستشرق دى ساسى ـ كما ذكرنا ـ عمل شرحا من الشروح التى وقعت له ، وأضاف إليه فوائد من كتب الأدب والنحو والتاريخ . وطبع هــذا الشرح فى باريس مع فهارس للألفاظ والأمثال والأعلام .

ولعل كثرة هذا العدد من الشارحين يرجع إلى مازخرت به المقامات من الـكلمات العربية ، والأمثال والأحاجى والألغاز ، والنكات النحوية والبلاغية مما يجعل ميدان الشرح ذا سعة وأردية الاستطراد كثيرة .

٢ـ وتختلف هذه الشروح إيجازا وإطنابا ، وأسلوبا ومنهجا، ومن أوسعها مجالا، وأجمعها لشتيت الفرائد ومنثور الفوائد، ومتشعب الأغراض، هذا الشرح الذى

وضعه العلامة أحمد بن عبد المؤمن القيسى المعروف بالشريشى . وقد وقعت له نسخة المقامات مما رواه عن أبى القاسم عيسى بن جهور وأبى الحجاج يوسف القضاعى وأبى الطاهر الخشوعى ، وهم ممن ذكرنا أنهم رحلوا إلى المشرق من علماء الأندلس ولقوا أبا محمد الحريرى فى بغداد ، وقرءوا عليه المقامات فى منزله ، وعادوا إلى بلادهم يحملون المقامات ؛ ضِمن الكنوز النادرة التى حملوها من المشرق إلى المغرب عن طريق الرحلة والرواية ...

وقد وقف الشريشى جهده حقبة على هذه المقامات ، يتدارسها مع العلماء ، ويستوعب الكتب والأسفار والدواوين والشروح والتعاليق ، ليتخذ العدة لشرحها ؛ ولهذه الغاية يقول : لم أدعْ كتاباً أُلِّفَ فى شرح ألفاظها ، وإيضاح أغراضها إلا وعيته نظرا ، وتحققته معتبرا ومُختبرا ، وترددت فى تفهُّمه وِرداً وصدَرًا ، وعكفت على استيفائه بسيطا كان أو مختصرا ... ولم أترك فى كتاب منها فائدة إلا استخرجتها ، ولا فريدة إلا استدرجتها ، ولا نكتة إلا علّقتها ، ولا غريبة إلا استلحقتها ... فاجتمع من ذلك حفظا وخطًّا أعلاقٌ جمة ، وفوائد لم تهتم بها قبله همة ؛ ثم لم أقنع بتدوين الدواوين ، ولا اقتصرت على توقيف التصانيف ؛ حتى لقيت بها صدور الأمصار ، وعلماء الأعصار » .

وجعل من أهم مقاصده فى هذا الشرح أيضا التعريف بالأمصار المذكورة فى المقامات ـ ماوسعه الجهد ـ ثم شرح الأمثال . وترجم للمشهورين من الآباء والأبناء والشعراء والأدباء والأعيان ، مع العناية بصنوف البديع وبسط أنواع الأدب وفنونه والإكثار من الشعر فى كل مناسباته . . . وخاصة الشعر الأندلسى فإنه حشد فيه مجموعة من مختار هذا الشعر ، وانفرد بنصوص نادرة منه لا تجدها فى غير هذا الكتاب .

وبهذه المزايا مجتمعة كان هذا الشرح مرجع الباحث وغُنية المتأدب ،وغاية المطالع والمستفيد .

٣ ـ والشارح هو أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القيسى الشريشى ، ولد بشريش سنة ٥٧٧ ـ وكانت شريش من أجمل بلاد الأندلس ، وأحفلها بأشجار الكروم والتين والعنب والزيتون ـ عاش فيها صدر شبابه ، وتلقى بها على أبى الحسن بن لبّال وأبى بكر بن الأزهر وأبى عبد الله ابن زرقون وأبى الحسين بن جبير . ورحل إلى المشرق ثم عاد إلى شريش ، وتوفِّىَ بها سنة ٦١٩ هـ .

وقد ألف من الكتب غير هذا الشرح مختصرا لنوادر أبى على القالى وشرحا لكتاب الإيضاح لأبى على الفارسى وآخر لشرح الجمل للزجاجى ،وجمع مشاهير قصائد العرب ؛ كما وضع رسالة فى العروض . وكان أيضا شاعرا مطبوعاً شائق اللفظ رشيق المعنى .

ومن نموذج شعره تلك الأبيات التى أوردها المقرى فى ترجمته(١) ، وكان قد سافر إلى الشام وشُغِف بها ثم رحل عنها ، فقال يتشوّق إليها :

يا جيرة الشام هل من نحوكم خبرُ ... فإن قلبى بنار الشوق يستعر
بعدت عنكم فلا والله بعدكمُ ... مالذّ للعين لا نومٌ ولاسهرُ
إذا تذكرت أوقاتا نأت ومضت ... بقربكمْ كادت الأحشاء تنفطر
كأننى لم أكن بالنَّير َبيْن(٢) ضحى ... والغيم يبكى ومنه يضحك الزهر
والورق تنشد ،والأغصان راقصة ... والدّوح يطرب بالتصفيق والنهر
والسفحُ ، أين عشياتى التى سلفت ... لى منه، فهى لعمرى عندى العمُر!
سقاك ياسفح ، سفُح الدمع منهملا ... وقلّ ذاك له إن أعوز المطر

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الشرح واحد من ثلاثة شروح وضعها

(١) نفح الطيب ٢ : ٣١٧ (٢) النيربين ، من قرى دمشق .

المؤلف : أولها مختصر ، وثانيها متوسط ، وثالثها هذا المطول ؛ وهو الذى اشتهر فى الخافقَيْن ذكره ، وأقبل عليه العلماء والمتأدبون دون غيره . . . ومن قصد البحر استقلّ السواقيا .

* * *

٤ ـ وحينما قمت بتحقيق هذا الكتاب تخيّرت النسخ الآتية للرجوع إليها :

(١) نسخة كاملة مخطوطة بدار الكتب برقم ١٧٥ ـ أدب ، مكتوبة بقلم معتاد ؛ إلا أنها تخلو من الضبط ، ، وتقع فى ٤٣٢ ورقة ، وفى كل صفحة ٣٥ سطرا ، وكل سطر يشتمل على ٢٢ كلمة تقريبا كتبت سنة ١١٣٠هـ ، وفى أولها وقفية على خزانة جامع شيخون سنة ١١٩٣ هـ وبعض التمليكات ، وقد رمزت لها بالحرف (ا) .

(٢) نسخة خطية محفوظة بدار الكتب برقم ١٧٨ ـ أدب ، تقع فى ١٢٧ ورقة ، وفى كل صفحة ١٩ سطرا ، كل سطر يشتمل على ١٢ كلمة تقريبا ؛ وهى نسخة جيدة صحيحة فيها بعض الضبط إلا أنها ناقصة تشتمل على شرح ١٧ مقامة فقط ، وبهامشها المقـامات ، وقد رمزت لها بالحرف (ب) .

(٣) نسخة خطية محفوظة بدار الكتب برقم ١٨٠ ـ أدب ، وهى نسخة خزائنية كتبت بخط نسخ واضح ، ولكنه خال من الضبط ، وتقع فى ٤٥٢ ورقة ، وفى كل صفحة ١٠ كلمات تقريبا ، وتحتوى على شرح خمس وعشرين مقامة . وقد رمزت لها بالحرف (ج) .

(٤) نسخة طبعت فى بولاق سنة ١٣٠٠ هـ بتصحيح محمد الحسينى ، وقد رمزت لها بالحرف (ط) .

وجميع هذه النسخ كتب على هامشها المقامات .

هذا عدا ما رجعت إليه من كتب الأدب واللغة والتاريخ ومجموعات الشعر ودواوين الشعراء .

ويطيب لى فى هذا المجال أن أنوه بفضل الصديق العلامة الحجة الدكتور محمود مكى الذى تفضل بقراءة هـذا الجزء بعد طبعه ، وكانت له ملاحظات قيمة أثبتها فيما بعد ، هذا بالإضافة إلى المعارف والمعلومات التى أفدتها منه ، وخاصة فى الأدب الأندلسى وتاريخه .

ويقع هذا الكتاب - إن شاء الله - فى ستة أجزاء ، وسألحق بآخره إن شاء الله الرسالتين السينية والشينية للحريرى، وحواشى ابن الخشاب وابن برّى وغيرهما على المقامات ؛ فضلا عن الفهارس الفنية العامة .

ومن الله العون والتوفيق .

رمضان سنة ١٣٨٩ هـ

نوفمبر سنة ١٩٦٩ م

محمد أبو الفضل إبراهيم